International Journal of Education, Culture, and Society

e-ISSN : 3024-8973
p-ISSN : 3024-8981

Index: Harvard, Boston, Sydney University, Dimensions, Lens, Scilit, Semantic, Google, etc

https://doi.org/10.58578/IJECS.v3i3.6604

تطور عمارة المساجد والسمات المميزة لعناصرها الإنشائية

The Evolution of Mosque Architecture, and the Distinctive Characteristics of its Structural Elements

Mohamed Tribak & Mekki Klaina
Abdelmalek Essaadi University, Tetouan, Morocco
tribak1952@gmail.com; adam4141@hotmail.com

Article Info:

Submitted:	Revised:	Accepted:	Published:
Jun 30, 2025	Jul 24, 2025	Aug 6, 2025	Aug 11, 2025

Abstract

This study explores the evolution of mosque architecture in Islamic civilization by analyzing its structural elements, functional roles, and symbolic meanings. It emphasizes the mosque's significance not only as a place of worship but also as a central social and urban institution within Islamic society. Despite centuries of architectural change, the mosque has preserved its unique identity and spiritual essence. Drawing on selected examples from the Islamic East, the Maghrib, and al-Andalus, the study examines defining features such as domes, minarets, *Mihrabs*, *Minbars*, and ornamental details. The core question addresses how Islamic architecture has remained rooted in religious principles while interacting with a range of cultural and artistic influences. Employing a descriptive and comparative approach, the research contends that mosque architecture represents a dynamic tradition—firmly anchored in Islamic values yet adaptive to historical shifts and regional contexts, reflecting the

IJECS Journal is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 4.0 International License

civilization's openness to other cultures without compromising its distinctive identity.

Keywords: Islamic Architecture; Architectural Identity; Islamic Civilization; Mosques; Mihrab; Minbar; Dome.

الملخّص: يتناول هذا البحث تطوّر عمارة المساجد في الحضارة الإسلامية من خلال تحليل عناصرها وخصائصها، وأدوارها الوظيفية، ومعانيها الرمزية. ويُبرز أهمية المسجد ليس فقط كمكان للعبادة، بل أيضًا كمؤسسة اجتماعية وحضرية مركزية في المجتمع الإسلامي. وعلى الرغم من قرون من التحوّلات المعمارية، فقد حافظ المسجد على هويته الفريدة وجوهره الروحي. وبالاستناد إلى أمثلة مختارة من الشرق الإسلامي والمغرب والأندلس، يتناول البحث السمات المعمارية المميّزة مثل القباب، والمآذن، والمحاريب، والمنابر، والتفاصيل الزخرفية. وتتمحور الإشكالية الأساس حول كيفية بقاء العمارة الإسلامية متجذّرة في المبادئ الدينية، مع تفاعلها في الوقت نفسه مع طيف واسع من التأثيرات الثقافية والفنية. ومن خلال منهج وصفي ومقارن، يؤكد البحث أن عمارة المساجد تمثّل تقليدًا ديناميكيًّا، راسخًا في القيم الإسلامية، وقادرًا على التكيّف مع التحوّلات التاريخية والسياقات الإقليمية، بما يعكس انفتاح الحضارة الإسلامية على الثقافات الأخرى دون التفريط في هويتها المعمارية المميّزة.

الكلمات المفتاحية :العمارة الإسلامية؛ الهوية المعمارية؛ الحضارة الإسلامية؛ المساجد؛ المحراب؛ المنبر؛ القبة.

مقدمة

الهدف الأساس من البحث العلمي هو دراسة أوضاع المجتمعات والبيئات التي تحتضنها، والعلاقات التفاعلية المتبادلة بينهما، من أجل استخلاص رؤى تسهم في تعزيز رفاهية الإنسان (Klaina, 2024a; 2024b) ، كما يسعى إلى ربط هذه النتائج بهوية كل مجتمع، حفاظًا على خصوصيته الثقافية (Klaina & Ansusa, 2023; Klaina, 2024c; 2024d; Klaina & Kmichou, 2025).

وهذا لا يعني رفض التفاعل مع الحضارات الأخرى، بل يشجع على الاستفادة من منجزات الإنسانية العالمية، ما دامت لا تمس الهوية الفردية أو الجماعية، بل تسهم إيجابيًا في البناء والتقدم. وضمن هذا الإطار تندرج دراسة العمارة الإسلامية.

أهمية الموضوع

تكتسب هذه الدراسة أهمية بالغة على عدّة مستويات؛ إذ تُسهم في تعميق الفهم لتطوّر عمارة المساجد من النواحي التاريخية والجمالية، كما تنخرط في النقاشات المعاصرة حول الهوية الإسلامية، وحفظ التراث، والتخطيط الحضري. وفي زمن باتت فيه العولمة والحداثة تعيدان تشكيل الفضاءات الدينية التقليدية، فإن إعادة النظر في الإرث المعماري للمسجد تُسهم في تصوّر جديد لدوره بوصفه مركزًا روحيًا ووحدويًا للمجتمعات الإسلامية.

وتتميّز العمارة الإسلامية بالتوازن بين الكونية والخصوصية؛ فهي تنطلق من مبادئ تشمل مختلف جوانب الحياة، لكنها تولي في الوقت ذاته عناية دقيقة بالجانب الإيماني من خلال الرمزية والتفاصيل الروحية (عثمان، 1988، 21). وتُعدّ من أرقى التقاليد المعمارية في العالم، ويتجلّى هذا التميّز بوضوح في المساجد، على الرغم من أن خصائصها الأسلوبية تمتد أيضًا إلى القصور، والمباني المدنية، والأضرحة، والحصون.

ومع مرور الزمن، تطوّرت العمارة الإسلامية لتصبح مرآة متقدمة للتطور الثقافي والعمراني. فقد أسّس المعماريون المسلمون لغة معمارية فريدة تستند إلى التناغم الهندسي والدقة البنائية والتكامل السلس بين العناصر الرئيسة، كالقباب والأقواس والأفنية والأعمدة، مما أفرز بيئات متناغمة تتّحد فيها الجمالية مع الوظيفة (السراج، 2015، 19).

وقد تَشكّل هذا الإرث بفعل مهندسين ذوي رؤى ثاقبة، بلغت أعمال بعضهم درجات عالية من الإبداع، وكانت تصميماتهم ترتكز على ثلاثة أبعاد توجيهية: البُعد الفكري (الذي يربط المعمار بالفكر والسياق المجتمعي)، والوظيفي (الذي يتماشى مع الأهداف العملية وكفاءة التوزيع المكاني)، والمادي (الذي يراعي الخصائص الجغرافية والمناخية والبيئية المحيطة). وهكذا، تكتسب العمارة معناها الحقيقي حين تُحقق الانسجام بين الفضاء والقيم (مارسي، 1987، 12).

ورغم تنوّع الأساليب عبر الأزمنة والمناطق، حافظت العمارة الإسلامية على وحدتها في التخطيط والشكل الداخلي، وظهرت أنماط بنائية جديدة استجابةً للتحولات الاجتماعية، مما يعكس قدرة هذا التراث على التكيّف والتجدد (علياء، 2008، 23).

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1) توثيق التطور التاريخي لعمارة المساجد، من بساطتها الأولى إلى بلوغها أرقى مستويات الإنجاز المعماري في التاريخ.

2) تحديد العوامل الرئيسة (السياسية، الاقتصادية، الجمالية، والثقافية) التي ساهمت في هذا التحول.

3) تحليل العلاقة بين تحولات عمارة المساجد وازدهار الحضارة الإسلامية، والرخاء الاقتصادي، والتطور الذوقي الفني.

4) عرض أثر المسجد في نشر الحضارة الإسلامية وتأثيره المتواصل على التقاليد المعمارية والفنية من خلال عناصره المميزة مثل المنبر، المحراب، المئذنة، القبة، والأقواس الفريدة.

إشكالية البحث

لا يُعد تطوّر عمارة المساجد مجرد تطور فني أو هندسي فحسب، بل يعكس تحوّلات أعمق شكّلت معالم العالم الإسلامي. ومع تحوّل المساجد من فضاءات بسيطة وظيفية إلى تجليات معمارية شاهدة على القوة والتقوى والهوية الثقافية، تبرز تساؤلات مركزية، من قبيل:

1) إلى أي مدى أثّر هذا التحول المعماري في شكل المسجد ووظيفته؟
2) وهل حافظ المسجد على جوهره الروحي ومهمته النبيلة عبر العصور؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليات الكبرى، سيتناول البحث الأسئلة الفرعية الآتية:

1) كيف تطوّرت عمارة المسجد من العصر النبوي إلى المراحل التاريخية المتعاقبة في العالم الإسلامي؟
2) ما الدور الذي قامت به العوامل البيئية والجغرافية والثقافية في تشكيل الأنماط الإقليمية لعمارة المساجد ضمن الرقعة الإسلامية الواسعة؟
3) إلى أي مدى حافظ المسجد المعاصر على هويته كمؤسسة دينية واجتماعية؟

منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على منهج وصفي وتحليلي ونقدي للإجابة عن تساؤلاته وتحقيق أهدافه. يبدأ بدراسة التطور التاريخي لعمارة المساجد، مع التركيز بشكل خاص على اختيار المواد، وتنظيم الفضاء، والعناصر التصميمية الأساسية. كما تُحلل المكونات المعمارية المركزية — مثل القباب والمآذن وقاعات الصلاة والزخارف — من حيث أدوارها الرمزية والوظيفية معًا.

ويتتبع البحث أيضًا تطور العمارة المسجدية بدءًا من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، مرورًا بالمراحل الإسلامية المتعاقبة، بما في ذلك العصران الأموي والعباسي، ثم العصر العثماني، وصولًا إلى الممارسات المعاصرة. ومن خلال ذلك، يسلط الضوء على الكيفية التي أثّرت بها السياقات الإقليمية، والتفاعلات الثقافية، والتطورات التكنولوجية، في تكيف عمارة المساجد وتحولها عبر الزمن.

المبحث الأول: المساجد في العمارة الإسلامية

أولا: أهمية عمارة المساجد

تحظى عمارة المساجد في الإسلام بأهمية عميقة، وقد أكدها القرآن الكريم في مواضع متعددة، حيث ورد ذكر المساجد في سياقات متنوعة. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ *(سورة التوبة، الآية: 18)*.

تشكل هذه الآية ثناءً على من يسهمون في بناء المساجد أو المحافظة عليها، سواء من خلال إنشائها المادي أو عبر رعايتها المستمرة وصيانتها.

أما أول بيت عُبد الله فيه على الأرض، فهو المسجد الحرام بمكة، كما ورد في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ *(سورة آل عمران، الآية: 96)*.

ففي هذه الآية، يخبرنا الله تعالى أن أول بيت وضع لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم، يطوفون حوله، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده، هو الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام. والمسجد الجامع من أهم المنشآت العامة في المدينة الإسلامية لما له من دور أساس في حياة المجتمع الإسلامي،

إذ هو بيت العبادة، غير أنه اتسعت وظيفته ليكون مركزا لبحث الشؤون السياسية والدينية والتربوية والاجتماعية (عثمان، 1988، 234).

ومع مرور الزمن، تطور دور المساجد والدوافع الكامنة وراء بنائها. فلم تعد أماكن للصلاة فقط، بل أصبحت رمزًا للسلطة السياسية والمكانة الثقافية. وكان الحكام والنخب غالبًا ما يُشرفون على بناء مساجد ضخمة ذات تصاميم معمارية فخمة، تعبيرًا عن نفوذهم وشرعيتهم، كما هو الحال مع حكام المماليك في القاهرة الذين تنافسوا في إنشاء منشآت معمارية مهيبة تعكس قوتهم (عبد الباقي، 1982، 33).

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، بدأت المساجد تأخذ طابع المقرات الرسمية للدولة، فكان الولاة يلقون خطبهم الافتتاحية من على منابر المساجد، يوضحون فيها برامجهم السياسية، وتوجهاتهم الفكرية، ويبينون مسؤوليات الحاكم والمحكوم. وقد كانت هذه الخطب تؤدي في أحيان كثيرة دور الإعلانات الدستورية الفعلية، كما حدث مع زياد بن أبيه في البصرة (ابن قتيبة، 2008، 2: 265-269).

ومن أولى الأعمال التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة، تأسيسه مسجده الشريف، الذي أصبح أنموذجًا يُحتذى به في عمارة المساجد على مر العصور (سعاد، 2019، 1: 16). وقد أكدت عديد من الأحاديث النبوية فضل المساجد وأهمية بنائها، ومن أبرزها قوله عليه السلام: "مَن بَنى مسجدًا للهِ، بنى اللهُ لهُ في الجنةِ مثله" (مسلم، 2007، 2: 27، رقم 533).

إن الآيات القرآنية، إلى جانب سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدور المتواصل للمساجد في المجتمعات الإسلامية، تبرز المكانة المحورية التي تحتلها عمارة المساجد في سياق الحضارة الإسلامية، سواء على المستوى المادي أو في الحياة الروحية والاجتماعية للمسلمين.

ثانيا: معايير اختيار الموقع وبناء المساجد

تُعد المساجد بيوت الله في الأرض، قد تختلف في الحجم تبعًا لحاجة المجتمع، إلا أن قُدسيتها لا ترتبط بضخامتها المعمارية أو زخرفتها، بل تتعلق بتوجهها نحو القبلة وبتخصيصها لعبادة الله. فسواء أكانت عظيمة البناء أم متواضعة الشكل، فإنها تحتفظ بمكانتها المقدسة دون تمييز (مؤنس، 1970، 55).

ومع ذلك، يجب أن يلتزم بناء المساجد بجملة من المبادئ الأساس التي تُعد معايير معمارية ودينية لا تقبل التفاوض أو التغيير (وزيري، 1999، 18). وهذه المبادئ لا ترتبط بسياق زمني أو مكاني معين، بل تمثل ثوابت عالمية في تصميم المساجد. ومن أبرزها، اختيار موقع يتمتع بالطهارة المادية والمعنوية، فلا يجوز بناء مسجد على أرض مغتصبة أو دون موافقة أصحابها الشرعيون.

وقد رسّخ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ من خلال سلوكه الفعلي، فعندما اختار موقع المسجد في المدينة، كانت الأرض تعود ليتيمين، ومع أنهما عرضاها هدية، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم أصر على شرائها بعشرة دنانير، ليؤكد بذلك على البعد الأخلاقي الواجب في بناء المساجد. وكان المسجد آنذاك لا يزيد عن سور بسيط بلا سقف، وكانت قبلته الأولى متجهة نحو بيت المقدس (الزركشي، 1999، 223).

ويُعد التوجه نحو الكعبة من الثوابت الأساس التي لا تقبل التجاوز في تصميم المساجد، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية: 144).

ثالثا: زخرفة المساجد

في العصر الإسلامي المبكر، كانت الزخرفة في المساجد غير مستحبّة، وكانت البساطة المعمارية – في الشكل والمعالجة السطحية – تمثّل قيمة موجّهة. غير أن تفاعل العمارة الإسلامية لاحقًا مع ثقافات متعددة أدى إلى إدماج العناصر الزخرفية تدريجيًا ضمن تصميم المساجد.

ويظهر هذا التطور بوضوح في المعالم الإسلامية الأولى مثل **قبة الصخرة** (كريسويل، 1979، 2: 119–137) و**الجامع الأموي في دمشق**، حيث زُيّنت الجدران الواسعة بزخارف هندسية ونباتية، إلى جانب آيات قرآنية بالخط الكوفي (غراڤمان وأيالون، 1999). وتُعدّ هذه الفسيفساء، التي تتكوّن من أنماط دقيقة وأشكال مُمَوهة، من أقدم مظاهر الفنون الزخرفية الإسلامية.

وفي **الجامع الأموي بدمشق**، على سبيل المثال، تضمّن البرنامج الزخرفي مناظر طبيعية لأشجار وزهور، مع الامتناع الصارم عن تصوير الكائنات الحية التزامًا بالمبادئ الجمالية الإسلامية (كريسويل، 1979، 2: 119–137). واتخذت الزخرفة أشكالًا متعددة، منها: النقوش المذهّبة، والنقوش البارزة على الجص، والخط العربي على المحراب وجدار القبلة، واستخدام الآيات القرآنية (السدلالي، 2008، 23).

وفي عهد الأمويين، ظهرت أولى المدارس الفنية الرسمية، ولا سيما في بغداد، حيث ظهرت مفردات زخرفية رفيعة المستوى. وتُعدّ **قبة الصخرة** مثالًا مبكرًا على المزج بين الطرز البيزنطية والمحلية، ما شكّل أنموذجًا أوليًا للزخرفة الإسلامية.

وفي **قرطبة**، زُيّن **محراب الجامع الكبير** بفسيفساء من الزجاج الملون والحجر، مستخدمةً تقنيات مستوحاة من التقاليد اليونانية-الرومانية، لكن بصياغة تتماشى مع الحسّ الفني العربي. وقد استُخدمت تقنيات مشابهة سابقًا في دمشق (طرشاوي، 2007، ص 190).

ومن العناصر الزخرفية المتكررة في داخل المساجد: كتابة الآيات القرآنية بالخط الكوفي على نوافذ المساجد وجدرانها، ومن أبرزها:

﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلوات وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾ *(سورة التوبة، الآية: 18)*.

الآيةُ التي تتكرّر كثيرًا في زخرفة المساجد تؤكّد على قدسية المسجد ودوره الروحي داخل المجتمع.

أما الزليج المغربي الذي أنتجه خزافو المغرب، فقد شاع استعماله في كسوة جدران المنازل كما في بعض المساجد، وعرف في مصر، وخاصة في العصر العثماني باسم "الزليزلي". وتقوم الزخارف النباتية بالدور الأساس في زخارف البلاطات، فنرى الأفرع التي تخرج منها الزهور، والأوراق المسننة التي تحصر بينها أزهار القرنفل، وبعضها تأتي على أشكال الشرافات التي تحصر بينها براعم الزهور (خليفة، 2004، ص 60).

ومع مرور القرون، تغيّر الغرض من العمارة المسجدية تدريجيًا. فبعد أن كانت المساجد أماكن مخصّصة للعبادة والتعليم الديني، تحوّلت إلى تجلّيات معمارية ضخمة ترمز إلى السلطة

والرعاية الملكية. وأضحت المساجد رمزًا للمكانة والسيادة، خصوصًا في عهد **حكام المماليك بالقاهرة** الذين أمروا ببناء منشآت معمارية عظيمة تُجسّد نفوذهم السياسي والروحي (عبد الباقي، 1982، ص 33).

رابعا: تطور العمارة المسجدية

لطالما كانت تطورات عمارة المساجد موضع تأويل من قِبَل المستشرقين. ومن أبرز هؤلاء الفرنسي **كريسويل (K.A.C. Creswell)**، الذي ذهب إلى أن المساجد الأولى استمدت أشكالها المعمارية من الهياكل الدينية الفارسية والبيزنطية. واستند في رأيه إلى أنّ الفاتحين العرب استعاروا عديدا من الأنظمة – كالحكم والعملة والعمارة – من الحضارات التي أخضعوها، مدّعيًا أن العرب لم يكن لديهم تقليد معماري سابق. وعدَّ **الجامع الأموي بدمشق** مثالًا بارزًا لهذا التأثر، حيث رأى أنه استلهم تصميمه من **كنيسة البازيليكا**، كما أشار إلى تشابه المساجد الإسلامية المبكرة مع الطرز القصرية الفارسية.(Creswell, 1926)

وقد عبّر المستشرق الإسباني **مانويل غوميث مورينو (Manuel Gómez-Moreno)** عن رأي مشابه، إذ رأى أن المسجد مستوحى من تصميم الكنيسة. ووفقًا له، فإن المحراب يشبه جزءًا مصغّرًا من الحنية التي كانت تُستخدم لوضع الإنجيل أثناء التلاوة. واعتبر المئذنة إعادة تفسير لبرج الأجراس الكنسي. وذهب إلى أن هذه العناصر نُقلت من العمارة الكنسية. وزعم أن التزام المسجد الحرفي بالعقيدة الإسلامية منعه من بلوغ القيمة المعمارية وجمالية البازيليك (مورينو، 1968، 340).

وهذه الآراء تجانب الحقيقة في كثير من الأمور، وتنم عن عدم الدراية بالواقع العربي، سواء قبل الإسلام من حضارات اليمن وحضرموت وغيرها، أو في العهد الإسلامي وما تم بناؤه من حضارة

خاصة بالمسلمين والتي تتماشى مع معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وهذا لا يعني أن الحضارات لا تتأثر ببعضها، فما من شك أنها تتفاعل، وذلك عامل من عوامل تطوير وتنمية الحضارة والثقافة التي حملها المسلمون معهم في الأصل (الشافعي، 2002، 401).

وعلى الرغم من أن **التأثير الثقافي المتبادل** يُعدّ سمة بارزة في تاريخ العمارة، إلا أن القول بأن المسجد مجرّد تقليد أعمى هو ادعاء اختزالي مشوب بأبعاد إيديولوجية. فالعمارة الإسلامية لم تكن مجرد محاكاة، بل كانت نتاجًا **واعياً وتركيبياً** استلهم من العقيدة الإسلامية ورؤيتها الكونية. ويظهر ذلك بوضوح في عناصر جوهرية مثل: التوجّه نحو القبلة، وتجنّب التصوير التجسيمي، والتركيز على الخط القرآني، والتجريد الهندسي، والزخرفة غير التمثيلية – وهي سمات تنسجم مع المبادئ العقدية الإسلامية، وتُميّز المسجد عن غيره من دور العبادة.

ويُضاف إلى ذلك أن **توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مخالفة اليهود والنصارى** يعزّز الرؤية التي ترى أن المسلمين الأوائل تجنّبوا عمدًا استنساخ الأشكال الدينية للحضارات الأخرى، خصوصًا في المؤسسات الأساسية كالمسجد.

وبناءً عليه، فإن تطور العمارة المسجدية يجب أن يُفهم باعتباره تعبيرًا **أصيلًا عن المبادئ الإسلامية**، تشكّل من خلال ديناميات داخلية روحية ووظيفية وثقافية، وليس مجرد تقليد لنماذج وافدة. لقد مثّلت هذه العمارة مسارًا فريدًا ساهم بإبداعه في التراث المعماري الإنساني، وعكس بعمق قيم أمة الإسلام وهويتها.

المبحث الثاني: العناصر المعمارية المكونة للمسجد

يلاحظ المتتبعُ طبيعةَ بناء المساجد أن عمارتها تتميّز بنظام متكامل من العناصر المعمارية الأساس التي أصبحت رموزًا دائمة لهوية الإسلام. وهذه العناصر لا تؤدّي فقط وظائف إنشائية

وجمالية، بل تعكس أيضًا تطوّر الفكر المعماري الإسلامي، وقامت بدور تأسيسي في نشوء المدارس المعمارية المتنوعة في العالم الإسلامي، لا سيّما في المباني الدينية. ومن أبرز هذه العناصر: **المئذنة، والمحراب، والمنبر، والقباب، والأقواس**، وما توَّج جماليتها من **زخارف وأعمدة وتيجان، ومقرنصات وغيرها.**

وتُعد **المئذنة** من أبرز هذه العناصر وأكثرها دلالة وتميّزًا في عمارة المساجد، إذ اكتسبت دلالات رمزية ووظيفية مكّنتها من التطوّر الطبيعي عبر التاريخ الإسلامي. وقد بدأت مع أول أذان رفعه **بلال بن رباح**، وانتهت إلى المآذن الشاهقة المتنوّعة في أشكالها الأسلوبية بحسب المناطق الجغرافية المختلفة (ثروت، 1994، 129).

أولا: الصومعة أو المئذنة

المئذنة هي عنصر معماري رأسي، غالبًا ما تُلحق بالمسجد أو تُبنى بجواره، وتتكوّن عادةً من درج حلزوني ونوافذ صغيرة، بهدف إيصال صوت المؤذن أثناء الأذان إلى أبعد مدى ممكن. لكن دورها لا يقتصر على الجانب الوظيفي فحسب، بل تؤدي أيضًا دورًا رمزيًا قويًا في التعبير عن الحضور الإسلامي والروحانية ضمن المشهد العمراني.

وتطلق على الصوامع عدة تسميات، من بينها: "المئذنة"، لكونها تستعمل للأذان. وهذه التسمية هي الأكثر انتشارا في الدول الإسلامية. كما أطلق عليها اسم "المنارة" نظرا لتشابهها مع منارة الإسكندرية. وسميت كذلك "الصومعة"، وهو الاسم المتداول في بلاد المغرب العربي (بلحاج، 2002، 220).

وكان الأذان، في العصر الإسلامي المبكر، يُرفع من على أسطح المباني أو أماكن مرتفعة قرب المسجد، لعدم وجود مآذن حينها. ومع تزايد الحاجة إلى أبنية مخصصة ومرتفعة لنشر الأذان، أصبحت المئذنة عنصرًا معماريًا ثابتًا.

بُني مسجد الفسطاط في مصر على يد عمرو بن العاص، وفي سنة 53هـ (673م)، أشرف مسلمة بن مخلد الأنصاري، والي مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان، على توسعته وبناء أربع مآذن في زواياه الأربع (ابن تغري بردي، 1929، 1: 68).

وتشير رواية بديلة ذكرها البلاذري إلى أن أول مئذنة ظهرت في البصرة عقب تجديد المسجد على يد زياد بن أبيه، حيث بُنيت المئذنة من الحجر بشكل مستقل عن المسجد المشيّد بالطين واللبن (البلاذري، 1987، 485).

وبناء الصوامع في بداية الأمر كان في الغالب منفصلا عن بناية المسجد أو مرتبطا بها من جهة جدار واحد بشكل غير عضوي مما طبعها بالهشاشة وعدم قدرتها على مواجهة العوامل الخارجية والزلازل. وأكثر الأماكن التي كانت تتعرض للخراب والسقوط هي الأطراف والقمم العليا للمآذن، مع ما لها من أهمية كبرى، لأنها المكان الذي ينادى منها لإقامة الصلاة. وكانت تتطلب شكلا خاصا للنهايات العليا لهذه الأبراج بسبب الحرائق التي كانت تنشب بها نتيجة استعمالها للنيران التي كانت تُشْعَل بها بغرض هداية السفن في البحار والقوافل في الصحارى، أو لإرسال الأخبار واستقبالها من المناطق التابعة للولاية، أو للتحذير من أخطار تتهدد الدولة بواسطة إشارات خاصة بالنيران ليلا وبالدخان نهارا (المقدسي، 1991، 177).

وهناك أمثلة أخرى لصوامع ذات البدن المربع المعتدل الارتفاع، مثل صومعة مسجد القيروان، أو ذات الارتفاع العالي مثل صومعة لاخيرالدا بإشبيلية التي بنيت بجامع إشبيلية والذي

تحول إلى كتدرائية، وخضع الجوسق العلوي للمئذنة لتغيير شامل. كما أن مئذنة جامع الكتبية بمراكش بنفس مواصفات لاخيرالدا في الشكل المربع والارتفاع، ولا تزال تحتفظ بمواصفاتها الأصلية. وتتوحد هذه الصوامع في كون معظمها بني بالآجر. وقد تفنن المصممون في تشكيلها وتزيينها بإدخال فتحات وعقود بمختلف الأحجام، متشابكة ومتقاطعة، دون الاستعانة بالفسيفساء أو البلاطات الخزفية أو غيرها (الشافعي، 2002، ص 158).

وعنصر الصومعة من أهم العناصر المعمارية التي يميز المساجد، وهي تضفي على المسجد كثيرا من الجمالية. وقد عرف طراز الصوامع تطورا سريعا، وهذا ما يعكس تميز الفكر المعماري الإسلامي، فهو في حركية دائمة تتميز بالتنوع والابتكار. وتختلف النماذج من فترة زمنية إلى أخرى، كما تختلف من منطقة إلى أخرى (طرشاوي، 2007، 15).

وتعد وحدة من الوحدات المشكلة للمسجد، وتتمركز بإحدى أركانه، وتتخذ عدة أشكال وطرز وبارتفاع متفاوت، وذلك حسب موقعها والميزانية المرصدة لبنائها وعادات وثقافة أهل البلد (Lucien, 1960, 52). وفي العصر المملوكي، أصبحت للمآذن قاعدة مربعة المسقط، قصيرة الارتفاع، يعلوها بدن مثمن في أغلب الأحيان، أو مستديرة في بعض الحالات، وتنتهي بصفوف المقرصنات الصغيرة التي تحمل شرفات المؤذن، ثم يأتي الجوسق الذي تنوعت أشكاله من مثمن إلى مستدير، وله جدران مصمتة أو مفرغة. وقد لجأ المعماري في بناء المساجد إلى تغطية المئذنة حتى يوفر الوقاية من الحر في موسم الصيف، ويوفر له الحماية من البرودة في الشتاء، كما تحميه من العواصف الرملية التي تكثر في المناطق الصحراوية (بلحاج، 2002، 225).

وتتميز المآذن بطريقة البناء، حيث تتم بطريقة مدروسة ومخطط لها مسبقا من قبل المعماريين. وقبل الشروع في البناء، يستوجب دراسة نوعية التربة المراد تشييد أسس الصومعة

عليها، وهي على ثلاثة أنواع: صخرية، وطينية، ورملية. وتعد التربة الصخرية من أفضل أنواعها للتأسيس والبناء، وذلك لما تمتاز به من خواص ميكانيكية وكيميائية تنفرد بها عن باقي أنواع التربة المتمثلة في الصلادة والصلابة العالية التي تحقق للمنشأة الحماية من مختلف العوامل، ومن ثم طول أمد المبنى (عوض، 2002، 52).

وعند النظر إلى هذا التطور الذي عرفته عمارة المساجد والأشكال المتجددة والمبتكرة للصوامع، والسرعة التي رافقت هذا التطور، نجد أن تطور العمارة الإسلامية رافقته كثير من الحركية والإبداع على مدار العهود، متجددة في النموذج والأهمية والجمالية، ومتلائمة مع بيئة المكان الذي توجد به، ومع المتغيرات التي تفرضها المرحلة وعادات المجتمعات حيثما كانت ووجدت. وقد أصبحت الصوامع من العناصر المعمارية المميزة للعمارة الإسلامية، أضفت عليها الجمالية والرونق لما تحتويه من زخارف وتفاصيل معمارية دقيقة.

ثانيا: المحاريب

المحاريب، مفردها: محراب، هي عبارة عن الحنية المجوفة في جدار المسجد، ويستعمل عادة لتحديد جهة القبلة، ويتم إنشاؤه ليساعد المصلين على الاهتداء إلى القبلة، وله تمثيلية معنوية في كون الإمام رمزا للأمة المسلمة يقف أمامه للصلاة (توفيق، 1969، 252–253).

ويرى علماء اللغات السامية أن لفظة "محراب" حميرية، من اللهجات العربية الجنوبية، ودخل إلى اليمن عن طريق الحبشة مع الديانة النصرانية، ومعناه: المعبد أو الحنية، وهو المكان الذي يوضع فيه تمثال القديس (مؤنس، 1981، 67). وعلى الرغم من أن هذا قد يُظهر جانبًا من التداخل اللغوي، فإن الوظيفة المعمارية للمحراب في الإسلام تطوّرت بشكل مستقل، وفقًا لمقتضيات دينية ومكانية مميزة.

يعود أول محراب في الإسلام إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. في البداية، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الجمعة واقفًا بجانب جذع نخلة. ثم اقترح بعض الصحابة صنع منبر له. يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

"كان المسجدُ مَسْقوفا على جُذوع منْ نخل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم على جِذْع منها. فلما صُنِع له المِنْبَرُ فكان عليه، فسمعنا لذلك الجِذع صوتا كصوت العِشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها، فسكنت"يخطب إلى جذع نخلة، فلما اتخذ المنبر تحوَّل إليه، فحنّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه..." (البخاري، 1997، 4: 476، حديث رقم 3585).

وفي حديث آخر، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنة" (البخاري، 1997، 2: 171، حديث رقم 1195؛ مسلم، 2007، 2: 27، حديث رقم 1190).

يُعد أقدم محراب مقوّس معروف في العمارة الإسلامية هو محراب المسجد النبوي في المدينة، وقد أُدخل أثناء ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (الزركشي، 1999، 363).

ومع تطوّر عمارة المساجد، أصبح المحراب عنصرًا موحدًا وغنيًا من حيث الأسلوب والزخرفة. تنوعت أشكاله؛ فبعضها كان نصف دائري، وبعضها الآخر بيضوي، بينما تميز المحراب في جامع قرطبة الكبير بعمقه الكبير، وكأنه غرفة صغيرة.

واستخدم الصناع تقنيات متنوعة في تزيين المحاريب، مثل الجص المحفور، النقوش الحجرية، والفسيفساء الدقيقة باستخدام الرخام أو الزجاج الملون. من السمات النموذجية وجود

زوايا مرتدة داخل المحراب، تعلوها قوس نصف دائري وقبة نصف كروية. في بعض المساجد العباسية والمملوكية، مثل سامراء ومسجد ابن طولون، استُخدم المحراب المسطح غير المجوّف، ما أتاح تفسيرات مكانية بديلة (الشافعي، 2002، 152). كما شاع نمط زخرفي مميز يتمثل في صدفة معكوسة أعلى المحراب، ظهر أولًا في قرطبة ثم انتشر في العمارة الإسلامية (فكري، 1965أ، 59).

ورغم ما زعمه بعض المستشرقين من أن المحراب مستمد من الحنية في الكنائس المسيحية، فإن السجلات الإسلامية تقدم أدلة تاريخية معاكسة قوية، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع حجرًا دالًا على القبلة في مسجد قباء، ثم قام الصحابة لاحقًا بتطوير هذا المؤشر المكاني إلى تجويف معماري. أما الانحرافات في اتجاه بعض المحاريب، كما في مسجد عمرو بن العاص ومسجد الإمام الشافعي، فكانت نتيجة للقصور في المعرفة الفلكية آنذاك، لا لعدم وضوح المفهوم (الزركشي، 1999، 255).

وعليه، فإن المحراب لم يكن ناتجًا عن استعارة معمارية، بل هو ابتكار إسلامي مقصود، يجمع بين الوضوح المكاني، والوظيفة التعبدية، والجمال الفني. ولا يزال حتى اليوم عنصرًا مميزًا في عمارة المساجد، يعكس وحدة الأمة الإسلامية ومركزية الاتجاه في الشعائر الدينية (الزركشي، 1999، 363).

ثالثا: القِباب

القباب، مفردها: قُبَّة. وهي غطاء من البناء يتخذ شكلا كرويا مُقَعَّرا من الداخل؛ يدور حول محور عمودي؛ وغالبا ما يغطي المساحات المربعة، ويقوم على مقرنصات أو تجويفات في الأركان الأربعة لتحويل هذا الطابق المربع إلى طابق مثمن، وهي مجموعة من العقود تلتقي عند نقطة

واحدة. ولفظة قبة أصبحت لها مضامين متنوعة مع مرور الزمن، ولا تعني بالضرورة السقف المقبب (رزق، 2000، 221).

وكانت لفظة "قبة" تطلق على صالة العرش بالقصور؛ والمصلى؛ وخزان المياه. وفي العمارة الإسلامية أصبحت القبة جزءا هاما من التصميم المعماري للمساجد، ومن السمات المميزة للمنشآت الدينية لما تخلقه من معاني رمزية بسبب وجودها أمام الصومعة التي تعلوها في السماء. كما تزيد من جمالية البناية وتقوم بوظيفة هامة في توزيع الصوت والضوء في المسجد (وزيري، 1999، 79). كما أنه لها دور في تكييف المبنى بصعود كتل الهواء الساخن ليجد منفذه عبر نوافذ القبة. وأول قبة عرفت في الإسلام قبة الصخرة المشرفة.

وكانت القباب تبنى من مواد خفيفة في بدايتها مثل الخشب، وتغطى بطبقة من الآجر، ثم أصبحت بعد ذلك تبنى بالحجارة أو بالإسمنت المسلح في عهد البيزنطيين لما يتميز به من سهولة، إلى أن أصبحت القباب تشيد بالآجر عوض باقي المواد، لما يتميز به من مرونة وخفة الدفع وقدرته على تغطية فراغات ضخمة. وقد طور المهندسون المعماريون المسلمون هذا الأسلوب من بناء القباب وخطوا خطوة مهمة باستخدامهم مادة الآجر في بناء قباب ذات بنية معمارية معقدة، وخير دليل على ذلك ما تم بناؤه من قباب بغرناطة (باسيليون، 2005، 2: 272). وبفضل النوافذ التي تقع في المنطقة الانتقالية بين القبة والأدرع الداعمة، فإنها توفر الإضاءة والتهوية للبناية، مسجدا كان أو غيره. وقد أضاف المسلمون إلى القباب؛ عبر الزمن؛ زخارف نباتية وهندسية من داخلها وخارجها مما أضفى عليها جمالية خاصة.

وكانت تُستخدم المقرنصات أو الحنيات الركنية للانتقال من القاعدة المربعة إلى الخطة الدائرية أو المثمنة. وغالبًا ما تكون القبة الخارجية ملساء ومرتفعة، بينما تُزين الداخلية بأضلاع أو تجاويف مقعرة مدعومة بحنيات كروية.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قبة الحمام المجاور لقبة الصخرة، التي توفر قبابها الأنيقة وفتحاتها العلوية الإضاءة والتهوية معًا، مما يزيد من راحة المستخدم (زغلول، 1986، 402). كما زُينت القباب غالبًا بزخارف نباتية وهندسية دقيقة، على سطحيها الداخلي والخارجي، بما يعزز الشعور بالسمو الروحي وصلتها الرمزية بالسماء.

ورغم أن الشكل العام للقبة الإسلامية تأثر بالعمارة الساسانية والفارسية والبيزنطية، إلا أنه تطوّر ليصبح نوعًا معماريًا مميزًا يتوافق مع الرؤية الكونية الإسلامية ووظائفها الشعائرية. وعند وضعها فوق المحراب، غالبًا مع المئذنة، تسهم في خلق توازن عمودي يعزز التركيز الروحي والجمالية المعمارية (لمعي، 1984، 82).

وتُعد قبة الصخرة في القدس أقدم نموذج قائم للعمارة الإسلامية المقببة، ومن أكثر المعالم شهرة في العالم الإسلامي. ورغم تأثرها بالشكل البيزنطي، إلا أن تنظيمها الداخلي ولغتها الزخرفية تعكس إعادة تفسير إسلامية واضحة. وهي مبنية على قاعدة مثمنة، تعلوها قبة خشبية مذهبة، وتختلف عن القباب الإسلامية اللاحقة التي غالبًا ما اعتمدت على الحنيات للانتقال من القاعدة المربعة إلى القبة الدائرية.

تتكون قبة الصخرة من قبة قطرها 20.44 مترا، متكئة على أسطوانة تشتمل على 16 نافذة، وتتركز الأسطوانة على أربع دعامة و12 عموداً منظمة بشكل دائري، بحيث توجد ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين (الرباط، 2002، 99). وتتخذ القبة شكلا ثمانيا يبلغ طول ضلعه 20.59

متراً، وارتفاعه 9.50 أمتار. ويوجد في الجزء العلوي من كل جدار خمس نوافذ. كما أن هناك أربعة أبواب في أربعة جدران خارجية، يبلغ قياس كل منها 2.55 م×4.35 م، كما زينت جدرانه من الداخل والخارج بزخارف ونقوش، حيث امتزجت فيها فنون الهندسة العربية الإسلامية مع الفارسية والرومانية (رائف، 1983، 71).

وقد زخرفت القبة من الداخل والخارج بألواح الرخام، والفسيفساء الزجاجية، والنقوش الكتابية، ما يدمج عناصر التصميم العربي الإسلامي والفارسي والروماني. وتُعد القبة من مواقع التراث العالمي لدى اليونسكو، ويُحتفى بها باعتبارها تحفة من تحف العمارة الإسلامية المبكرة بفضل نسبها المتناسقة وتركيبها الرمزي وزخرفتها الراقية (كريسويل، 1984، 35).

وقد لجأ المعماريون المسلمون في إقامة القباب إلى استعمال العقود، فامتازت بكونها تتشكل بقطاع مدبب بفضل ابتكار العقود المدببة وانتشارها، والذي أصبح هو السائد في شرق العالم الإسلامي. واستمرت عملية التطوير والإبداع حتى أصبحت القباب تحفة معمارية ذات طابع وطلاوة مميزة، وذلك من الناحية المعمارية والإنشائية التي أبدعها الفنيون المسلمون. كما انتشر نموذج القباب ذات الضلوع المحدبة من الخارج والمقعرة من الداخل في مصر أيام الدولة الفاطمية، خاصة في الأضرحة، وتوجد بشمال إفريقيا أمثلة متعددة لها، ومنها مثال لهذا النوع من القباب بجامع مدينة تلمسان وجامع مدينة تازة (توفيق، 1969، 19–20). وتنوعت المواد المستخدمة في بناء القباب ما بين الخشب، والحجر، والخرسانة المسلحة.

وللقباب دور جمالي هام، وقد تفنن المعماريون المسلمون في إبراز جمال القبة، إضافة إلى شكلها المغاير عن البناء، وذلك باستخدام عناصر التزيين الأخرى المتنوعة، سواء داخل القبة أو خارجها. كما أن لها دورا في التهوية، فوجودها بوسط قاعة الصلاة بالمسجد يؤدي إلى سحب الهواء

الساخن الموجود بالفضاء السفلي ليرتفع إلى الأعلى، فيخرج من النوافذ التي تتمركز في الجهة المطلة على مصدر الحرارة. أما النوافذ التي في ناحية الظل، فيدخل منها الهواء الرطب، مما ينتج عنه خلق تيارات هوائية نقية للتردد على جنبات المسجد، فيبعد الهواء الفاسد إلى الخارج (الشافعي، 2019، 180).

وقد تنوعت القباب وتطورت، ليظهر في الأندلس أنماط جديدة مثل: القبة الرباعية، والمثمنة، وقباب المقرنصات، والقباب المحززة (المسننة)، ونصف القباب، وغيرها من التكوينات المعقدة (دقمق، 2016). وقد ارتبطت هذه القباب بجدران القاعات والمداخل والأبراج والسلالم والممرات والحمامات والخزانات، فضلًا عن وظيفتها المعمارية الرئيسة.

رابعا: المنابر

المنابر، مفردها: منبر. وهي عبارة عن بسطة مربعة مرتفعة عن مستوى أرضية المسجد، يتم الصعود إليها بواسطة سلم من عدة درجات، وينتهي بسقف فوق البسطة، يقف فوقه الخطيب لإلقاء خطبة الجمعة والأعياد. يصنع من الخشب المحفور والرخام والحجر، ويوضع في الغالب على يمين المحراب. وقد اجتهد الحرفيون في اختيار نماذج لتزيين المنبر بمختلف الأشكال الهندسية (عثمان، 1988، 49).

يُعد منبر المسجد الأقصى في القدس من أقدم وأشهر الأمثلة، وقد أمر ببنائه نور الدين زنكي في القرن الثاني عشر وأُكمل في عهد صلاح الدين الأيوبي. وكان يُعد تحفة من تحف فن النجارة الإسلامية حتى تدميره عام 1969 (نصيب أوغلو، 1995، 198).

ولتحقيق أقصى استفادة من مساحة المسجد، ابتكر المعماريون المسلمون حلاً معماريًا يتمثل في تخصيص تجويف للمنبر بجانب المحراب، ما يسمح بإبعاده عن قاعة الصلاة عند عدم

الحاجة إليه. أصبح هذا التصميم شائعًا في الأندلس، خصوصًا بعد توسعة المسجد الكبير في قرطبة في عهد الحكم المستنصر بالله، حيث خُصص مكان للمنبر يُركّب على قضبان ويُسحب للخارج عند خطبة الجمعة (سالم، 2008، 344؛ أبو مصطفى، 1996، 43). وانتقل هذا الابتكار لاحقًا إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي، بما في ذلك بلاد المغرب.

ومهما يكن مصدر هذا العنصر المعماري من الحضارات السابقة، فهذا لن يخرج عن القاعدة كون الثقافة الإسلامية منفتحة على كل الثقافات ومتقبلة للفنون الراقية. ويبقى الفضل للفنان المسلم الذي طور وأبدع وأدخل اللمسات الجمالية التي أضفت على هذا العنصر المعماري رونقا جعل منه؛ بالإضافة إلى وظيفته؛ واحدا من أهم العناصر المعمارية جمالا.

خامسا: قاعة الصلاة

قاعة الصلاة هي القسم الرئيس في الجامع والمسجد، وهي المكان الذي تقام فيه الصلوات وتلقى خطبة الجمعة ودروس الإرشاد الديني والتفكير في أمور المسلمين. وغالبا ما يكون شكلها مستطيلا، حيث يعد المسقط المستطيل من أفضل المساقط في قاعات الصلاة، وهو الغالب على جل المساجد الموجودة. والضلع الأطول للمسجد يكون موازيا لحائط القبلة، لما يعطيه من تأكيد لاتجاهها. ويتطلب في قاعات الصلاة دراسة الصوتيات؛ وذلك بوضع تصاميم الجوامع والمساجد بناءً على نسب هندسية وأبعاد تساعد على توزيع الصوت بكيفية متوازنة، وهذا يسهّل السماع الجيد عند إلقاء خطب الجمعة أو دروس العلم دون استعمال وسائل حديثة لتكبير الصوت إذا لم تكن لازمة (نوفل، 1999، 75–90).

كما أن المعماري المسلم يستعمل كل ما سنحت له الفرصة أسلوبا إنشائيا يسمح بتغطية فراغ بيت الصلاة؛ مع التقليل من أعمدتها وإبعادها عن بعضها حسب الإمكان؛ لضمان سعة

قاعات الصلاة. كما يراعى في قاعات الصلاة تصميم الأبواب في الواجهات الخلفية أو الجانبية، وهو الأمر الذي يجعل المصلين يتوجهون إلى الصفوف الأولى من الخلف، مما يسهل استكمال الصفوف الأمامية وقت الدخول وتيسير عملية الخروج بعد انتهاء الصلاة دون تخطي رقاب المصلين. كما يراعي عزل مدخل النساء تماما عن مدخل الرجال.

سادسا: تهوية المساجد

أولى المعماريون المسلمون اهتمامًا بالغًا بتهوية المساجد، كما تم توثيقه في المصادر المعمارية والتاريخية. ونظرا لكثرة الحرارة في أغلب البلاد الإسلامية، ونظرا لما يطرأ على المناخ من الحرارة أو البرودة، وتأثر المساجد بتلك الظروف، فإنه من الضروري أن توجد الطرق التي تلطف الجو وتجعله معتدلا. لذلك، اتجه مخططو المساجد إلى تحقيق التهوية المناسبة، مع الأولوية للتهوية الطبيعية كحل أساس لتخفيف شدة الحرارة لما قد تسببه من غياب التركيز، وذلك باستخدام الوسائل الطبيعية للتبريد الشمسي السالب، وهو يعني الاعتماد على الفرق بين درجات الحرارة المختلفة داخل المسجد في تحريك الهواء من خلال عناصر خاصة، مثل ملاقب الهواء، مع تزويدها بالمياه أو عناصر مبللة لترطيب درجة حرارة الهواء، وهي ما تسمى بأبراج التهوية والترطيب، إضافة إلى الاعتماد على الوسائل الاصطناعية المتطورة والصديقة للبيئة في حالة عدم تحقيق الغاية الكاملة من التهوية الطبيعية (نوبي، 2002، 47).

سابعا: مرافق الوضوء ودورات المياه

إن الطهارة الكبرى والصغرى من شروط صحة الصلاة، لأجل ذلك، فإن توفر أماكن الوضوء في المساجد هام جدا بالنسبة للمسلمين. لهذا السبب، يلجأ المهندس عند وضع تصميم المسجد إلى تحديد العلاقة المحتملة بين مكان الوضوء ومكان الصلاة، ودراسة مسارات الحركة في

دخول المسجد حيث المنطقة الطاهرة. وهذا التحديد يهدف إلى الحفاظ على مكان الصلاة خاليا من أي مخلفات نجسة أو روائح كريهة أو أي شيء آخر يؤثر في طهارة المسجد بما لا يتناسب وأداء الصلوات. لذلك، يعمد المخطط إلى جعل مكان الوضوء مستقلا، مع ارتباطه بالمسجد، مع الحرص على أن يكون مكانه خلف اتجاه القبلة أو في أحد الجانبين. ويستحسن أن تكون أماكن الوضوء سهلة الولوج من بيوت الخلاء وأن يتم فصلهما عن بعظهما بحاجز حتى تبقى أماكن الوضوء طاهرة (وزيري، 2008، 164).

وقد ذهب أكثر العلماء إلى استحسان إبعاد الكنف عن المساجد قدر الإمكان، صيانة لها من النجاسات والروائح الكريهة؛ ويجوز بناؤها بالقرب من المساجد والتوضؤ بها (الزركشي، 1999، 383). ففي المغرب والأندلس، على سبيل المثال، كانت المراحيض تُبنى بشكل مستقل ولكن قريبة من المساجد، وهو ما تؤكده مصادر النوازل الفقهية.

كما أوصى العلماء بأن تكون أبواب المراحيض خارج بنية المسجد. ومع ذلك، قد تستدعي الظروف المناخية أو الجغرافية في بعض الحالات اتخاذ حلول بديلة تُراعي الواقع العملي.

ومع مرور الزمن، صار المهندس يركز في نفس الوقت على تصميم مكان الوضوء لما تتطلبه من شروط لتحقيق الأغراض الوظيفية التي تفرضها الشعائر الدينية، وتحقق شروط طهارة الماء، وضمان الفسحة الكافية للمتوضئ ليستعمل يديه بكل أريحية، وتحريك قدميه بالتوالي فوق دكة إسمنتية أو جدار منخفض مع ضرورة توفر المكان على مقعدة الجلوس أثناء الوضوء. ويجب أن يكون مكان الوضوء مانعا للانزلاق ووالجا لمن به إعاقة أو عجز في الولوج بسهولة. كما أن المراحيض يجب أن تتوفر على وحدة مخصصة لهذه الفئة من المستعملين تخضع لمعايير الولوج؛ ومجهزة بمساند اليد لمساعدتهم على الجلوس والوقوف (مختار، 2005، 20).

تُعد هذه الاعتبارات أساسية في تخطيط المساجد الحديثة، وهي ضرورية لضمان النظافة البيئية وسلامة المستخدمين، ويقع على عاتق المعماري مهمة تكييفها مع السياق الخاص والقيود الموجودة في كل مشروع.

ومع تحوّل المدن الإسلامية إلى مراكز حضرية معقّدة تؤدي أدوارًا ثقافية واجتماعية متنوعة، تطور التخطيط المعماري أيضًا (عثمان، 1988، 6). وأدى هذا التطور إلى ظهور مؤسسات تعليمية، ورباطات وزوايا كمؤسسات دينية ارتبطت نشأتها بالتصوف. وكان لظهور هذه المؤسسات في نهاية القرن الخامس الهجري وانتشارها في المدن الإسلامية، واهتمام الجهات الرسمية بإنشائها أثره البالغ في تطور المدن وازدهار عمرانها (عثمان، 1988، 71).

ثامنا: المدارس المدمجة بالمساجد

إن مفهوم المدرسة معماريا هو عبارة عن منشأة بها صحن واسع ومكشوف؛ امتدت عليه إيوانات وقاعة للصلاة، وسكنى للطلبة المحليين والأجانب. وقد أصبحت مع الوقت ذات نظام وأسس تستجيب لوظيفة المسجد والدراسة والسكن (فكري، 1965ب، 2: 121). واعتمدت على مواصفات خاصة، منها تحديد الجدار لاتجاه القبلة، بالإضافة إلى المرافق الأخرى المذكورة سابقا (حيدر، 1995، 26).

وانتشر بناء المدارس في الشرق الإسلامي على يد فقهاء السنة، وبعد ذلك تبنت الدولة هذه المشاريع لما وجدت فيها من صلاح ومنفعة تتمثل في إيجاد موظفين لخدمة الإدارة. وقد اهتم السلاجقة والأيوبيون بإنشاء هذه المدارس التي وصلت إلى أرقى مستوى من التنظيم والإدارة، والمستوى العلمي الذي يظهر بصورة جلية في الموسوعات العلمية والتاريخية، والمخطوطات الأخرى التي تزخر بها المتاحف والمكتبات العالمية، وأرست نظاما وتقاليد علمية راسخة (عثمان، 2005،

33–56). ولا تكاد المدارس تختلف عن بعضها من حيث هندستها أو من حيث وظيفتها عن الخط العام للمسجد، إلا أن محتوياتها أشمل وأجمع لأغراض التعليم والدراسة، فهي تحتوي على قاعات للدرس، وإقامات للطلبة والأساتذة، ومكتبة، وملحقات أخرى من حمامات ومراحيض وغير ذلك (غازي، 1989، 113).

ورغم التشابه في الطراز المعماري بين المدرسة والمسجد، فإن التصميم الداخلي للمدارس يتيح مساحة أكبر للأغراض التعليمية. ومن الأمثلة البارزة على هذا التكامل، جامعة القرويين التي أسستها فاطمة الفهرية، والتي تُعد أقدم جامعة لا تزال تعمل حتى اليوم في العالم، ما يعكس التزام الإسلام العميق بالتعليم الشامل والمتاح للجميع، سواء من السكان المحليين أو الوافدين.

الخاتمة

تُعد عمارة المساجد من أبرز مظاهر الإبداع الفني في الحضارة الإسلامية، وقد شهدت تطورًا ملحوظًا عبر العصور المختلفة. فمنذ تأسيس أول مسجد في الإسلام، خضعت هذه البنية المعمارية لتحولات متعددة، تأثرت بالظروف الاجتماعية والثقافية والتقنية لكل حقبة زمنية. وعلى امتداد التاريخ الإسلامي، تنوعت الطرز المعمارية للمساجد، بدءًا من النماذج الأولى المستوحاة من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وصولًا إلى المدارس المعمارية المتميزة، كالمغربية والأندلسية.

ويكشف التعمق في دراسة العناصر المعمارية الأساسية -مثل المحراب، والمنبر، والقبّة، والأعمدة، والمقرنصات- أنها لم تكن مجرد عناصر إنشائية، بل رموزًا ذات دلالات روحية وثقافية. فقد أسهمت هذه العناصر في تعزيز الأجواء الروحانية، وعكست المثل الدينية والجمالية في

المجتمع الإسلامي. فعلى سبيل المثال، ترمز القبة إلى السماء، بينما يشير المحراب إلى اتجاه القبلة، ما يضفي على المسجد بُعدًا روحانيًا عميقًا.

وخلال العهد العثماني، بلغت عمارة المساجد ذروتها من حيث الرقي، فتميّزت بالقباب المركزية والمآذن الرفيعة والزخارف الخزفية الدقيقة. أما في المغرب، فقد ابتكر المعماريون تصاميم جمعت بين عناصر المشرق والخصوصية المحلية، مما أفرز طرازًا فريدًا يعكس الهوية الثقافية والدينية للبلد.

ولا تقتصر دراسة عمارة المساجد وتطورها على الجوانب الفنية أو التقنية فحسب، بل تُسهم أيضًا في تعزيز الوعي بالتراث الثقافي الإسلامي، وتُبرز ثراء الحضارة الإسلامية وتنوّعها. فهذه المنشآت، بما تحمله من زخارف دقيقة وأشكال معمارية متقنة، تُعد شواهد خالدة على الإنجازات الفكرية والروحية للمسلمين، وتواصل إلهام المعماريين والباحثين حول العالم.

كما تميزت العمارة الإسلامية بانفتاحها الانتقائي على المؤثرات الخارجية، فتبنّت ما ينسجم مع مبادئها، وأعادت تفسيره ضمن رؤيتها الثقافية الخاصة. وقد بقيت قادرة على الاستجابة لتحديات العصر، مثل ضمان إتاحة المساجد لذوي الاحتياجات الخاصة، ودمج تقنيات التهوية الحديثة والبنية الرقمية. وهذا ما يؤكد أن العمارة الإسلامية، وإن كانت متجذّرة في التراث، إلا أنها منفتحة على الابتكار، وتوفر آفاقًا واعدة للإبداع المستقبلي.

توصيات

1. **تعزيز البحث المقارن في الطرز المعمارية للمساجد.**

يوصى بإجراء دراسات مقارنة معمّقة بين الأساليب المعمارية للمساجد عبر مختلف الفترات التاريخية والمناطق الجغرافية، لا سيما بين المشرق والمغرب الإسلامي، لإبراز التأثيرات المشتركة والتنوّع الفني.

2. **تكثيف توثيق وصون المساجد التاريخية**

ينبغي إيلاء أهمية أكبر لتوثيق المساجد التاريخية والحفاظ على عناصرها الأصلية، بما يضمن نقلها إلى الأجيال القادمة كجزء أساس من التراث الثقافي والحضاري الإسلامي.

3. **الحفاظ على الهوية المعمارية والروحية للمساجد.**

يجب أن تحترم عمليات الترميم والصيانة والبناء الجديد الخصوصية المعمارية والرمزية للمساجد، بما يضمن الحفاظ على طابعها التاريخي والروحي.

4. **تشجيع استخدام التقنيات الرقمية في حفظ عمارة المساجد.**

يُستحسن اعتماد أدوات رقمية حديثة -مثل المسح ثلاثي الأبعاد، والنمذجة الرقمية، والواقع المعزز-لتوثيق عمارة المساجد وعرضها ونشرها، لما لها من أثر كبير في البحث الأكاديمي وتعليم التراث وتعزيز الوعي العام.

المراجع

المراجع باللغة العربية

باسيلون، بابون مالدونادو. (2005). *العمارة الإسلامية في الأندلس، عمارة المدن والحصون*. ترجمة: علي إبراهيم المنوفي. القاهرة: مطبعة الجزيرة. ط1.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. (1987). *فتوح البلدان*. تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع. بيروت: مؤسسة المعارف. ط1.

بلحاج، معروف. (2002). *العمارة الدينية الإباضية في واد مَزاب*. الجزائر: جامعة أبي بكر بلقايد. أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.

ابن تغري، بردي جمال الدين. (1929). *النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة*. مصر: دار الكتب.

توفيق، حمد عبد الجواد. (1969). *تاريخ العمارة العصور المتوسطة والأوربية والإسلامية*. القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة.

ثروت، عكاشة. (1994). *القيم الجمالية في العمارة الإسلامية*. القاهرة: دار الشروق. ط1.

حيدر، كامل. (1995). *العمارة العربية الاسلامية، نشوء المدارس الاسلامية وخصائصها في العصر العباسي*. بيروت: دار الفكر اللبناني.

خليفة، ربيع حامد. (2004). *فنون القاهرة في العهد العثماني*. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق. ط 3.

دقماق، أحمد محمود. (2016). الأساليب المعمارية لتغطية المحاريب في العمارة الأندلسية: دراسة أثرية معمارية مقارنة مع المغرب الأقصى. *مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب*. عدد 17.

رائف، يوسف نجم. ()1983.*كنوز القدس*. دمشق: وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب.

الرباط، ناصر. (2002). *ثقافة البناء وبناء الثقافة: بحوث ومقالات في نقد وتاريخ العمارة 1985-2000*. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

رزق، عاصم محمد. (2000). *معجم مصطلحات العمارة الإسلامية*. القاهرة: مكتبة مدبولي.

الزركشي، محمد بن عبد الله. (1999). *إعلام الساجد بأحكام المساجد*. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ط 5.

زغلول، سعد عبد الحميد. (1986). *العمارة والفنون في دولة الإسلام*، الإسكندرية: منشأة المعارف.

سالم، عبد العزيز. (2008). *قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس*. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

السدلالي، صالح بن غانم. (2008). *الضوابط الشرعية لعمارة المساجد*. الرياض: كلية العمارة والتخطيط.

السراج، أحمد. (2015). *العمارة الإسلامية خصائص وآثار*. مصر: مطبعة هيئة الآثار المصرية.

سعاد ماهر محمد. (2019). *مساجد مصر وأولياؤها الصالحون*. القاهرة: دار الكتاب المصري.

الشافعي، فريد محمود. (2002). *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

الشافعي، فريد محمود. (2019). *العمارة العربية الإسلامية في عصورها المبكرة*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

طرشاوي، بلحاج. (2007). *العمارة الإسلامية: أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية*. الجزائر: النشر الجامعي الجديد.

عالية، عكاشة. (2008). *العمارة الإسلامية في مصر*. الجيزة: بردي للنشر. ط1.

عبد الباقي، إبراهيم. (1982). *تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة*. مصر: مركز الدراسات التخطيطية والعمرانية.

عثمان، محمد عبد الستار. (1988). *المدينة الإسلامية*. الكويت: سلسلة عالم المعرفة. عدد: 128.

عثمان، محمد عبد الستار. (2005). *نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية*. الإسكندرية: مطبعة دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. ط1.

عوض، محمد أحمد. (2002). *ترميم المنشأة الأثرية*. القاهرة: دار نهضة الشرق.

غازي، رجب محمد. (1989). *وظيفة العمارة العربية الاسلامية التجارية من الشكل إلى المضمون*. بغداد.

فكري، أحمد. (1965 أ). *المسجد الجامع بالقيروان*. القاهرة: مطبعة المعارف ومكتبتها.

فكري، أحمد. (1965ب). *مساجد القاهرة ومدارسها*. مصر: دار المعارف، ط 2.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (2008). *عيون الأخبار*، تحقيق: منذر محمد سعيد أو شعر. بيروت: المكتب الإسلامي. ط 1.

أبو مصطفى، كمال السيد. (1996). *جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي*. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب.

كريزويل، كيبل أرشيبلد. (1984). *الآثار الإسلامية الأولى*. ترجمة: عبد الهادي عبلة. دمشق: دار قتيبة. ط1.

لمعي، صالح مصطفى. (1984). *التراث المعماري في مصر*. بيروت: دار النهضة العربية. ط 2.

مارسيي، جورج. (1987). *الفن الإسلامي*. دمشق: وزارة الثقافة والسياحة والاثار.

مختار، أحمد حنفي. (2005). *المعايير التصميمية لأماكن الوضوء في المساجد*. ترجمه من الإنجليزية: أمينة على أحمد. الشارقة: الجامعة الأمريكية.

المقدسي، شمس الدين. (1991). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*. القاهرة: مكتبة مدبولي.

مورينو، مانويل غوميث. (1968). *الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية عصر المرابطين*. ترجمة: عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع. مؤسسة شباب الجامعة.

مؤنس، حسين. (1970). *المساجد*. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، عدد 27.

نوبي، محمد حسن. (2002). *عمارة المساجد في ضوء القرآن والسنة*. القاهرة: دار نهضة الشرق. ط1.

نوفل، محمود حسن. (1999). *المعايير التصميمية لعمارة المساجد*. الرياض: جامعة عبد الملك سعود. سجل بحوث ندوة: عمارة المساجد، آلية المارة والتخطيط.

وزيري، يحيى. (2008). العمران والبنيان في منظور الإسلام. *مجلة روافد*. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ط1.

وزيري، يحيى. (1999). تأثير المنهج الاسلامي على عمارة المساجد. الرياض: جامعة الملك سعود. *كتاب الندوة العالمية للمساجد*.

ثانيا: المراجع بغير اللغة العربية

Al-Bukhārī, A. A. M. (1997). *Sahīh al-Bukhārī* (M. M. Khan, Trans.). Riyadh: Dārussalām, 1st edition.

Creswell, K.A.C. (1926). "The evolution of the Minaret". *Burlington Magazine*, March, May and June.

Creswell, K.A.C. (1999). *Early Muslim Architecture*. New York: Hacker Art Books.

Grafman, Rafi & Ayalon, Myriam. (1999). "The two great Syrian Umayyad Mosques: Jerusalem and Damascus". *Muqarnas*, 16. https://doi.org/10.2307/1523262

Gülru Necipoğlu. (1995). *The Topkapi Scroll: Geometry and Ornament in Islamic Architecture*. The Getty Center for the History of Art and the Humanities.

Klaina, Mekki. (2023). "Religious Discourse in the Media Arab". *Living Islam Journal of Islamic Discourses.* 6(2), 199-218. https://doi.org/10.14421/lijid.v6i2.4488

Klaina, Mekki. (2024a). "Islamic Scientific Research: Its importance in serving society and mechanisms for its integration". *Al-Fadlan Journal of Islamic Education and Teaching*. 2(2), 77-98. https://doi.org/10.61166/fadlan.v2i2.69

Klaina, Mekki. (2024b). "Honey in the Quran and Sunnah: Exploring its Medicinal Properties". *al-Afkar, Journal For Islamic Studies*. 7(3), pp. 183–198. doi: 10.31943/afkarjournal.v7i3.1259.

Klaina, Mekki & D.I. Ansusa Putra (2024c). "AL-TASĀMUH OR TOLERANCE IN THE QURAN AND SUNNAH? And Claims of The Deniers". *Living Islam Journal of Islamic Discourses*. 7(1), 1-22. https://doi.org/10.14421/lijid.v7i1.5367

Klaina, Mekki. (2024d). "The Image of the Muslim Woman in Western Thougth". *LECTURES: Journalof Islamic and Education Studies*. 3(2), 65–82. https://doi.org/10.58355/lectures.v3i2.89

Klaina, Mekki & Kmichou. (2025). "The Challenges of Chastity, Self-Restreint, and Abstinence in the Digital Age: A Quranic, Hadith, and Psychological Study of the Effects of Social Media". *Asian Journal of Islamic Studies and Da'wah*. 7(3), 277-312. https://doi.org/10.58578/AJISD.v3i3.5415

Lucien Golvin. (1960). *La mosquée*. Institut d'Etudes Supérieures Islamiques.

Muslim, A. al-Ḥusayn ibn al-Ḥajjāj. (2007). *Sahih Muslim*. (Translated by: Nasiruddin al-Khattab). Riyadh: Darussalam. 1st Edition.

Translation of the meanings of THE NOBLE QURAN in the English language. (Translated by: Muhammad Taqi-ud-Din al-Hilali and Muhammad Muhsin Khan). K.S.A: King Fahd Complex for the printing of THE HOLY QURAN, Madinah.